الفصل الثالث

ولاية علي رضا باشـــا

ان علي رضا باشا ـ ويسمى أيضاً علي باشا ـ هو أول الولاة الذي حكموا العراق بعد القضاء على المماليك في ١٨٣١م ، وتمثل ولايته بداية عهد جديد في العراق هو عهد العودة الى طاعة الدولة العثمانية بخلاف ما كان عليه الوضع في العهد السابق عندما كان العراق شبه مستقل عنها •

أول عمل قام به علي رضا باشا في بغداد هو تدبيره لمذبحة المماليك[1]، وهي مذبحة تلفت النظر لأنهـا جاءت عقب مذبحتين سـابقتين : حدثت أولاهما في القاهرة عام ١٨١١م حيث قضى بها محمد علي باشا على المماليك في مصر ، والثانية حدثت في اسطنبول عام ١٨٢٦م حيث قضى بها السلطان محمود على الانكشاريين • والظاهر أن محمد علي باشا كان المبدع الأول لفكرة المذابح وقد استفاد منها اسـتفادة كبيرة لانـه تخلص نهائيـاً من خصوم لـه دأبوا عـلى الكيد به ، وقد قلده فيها السلطان محمود للقضاء على الانكشاريين الذين كانوا يشاغبون دائماً في مقاومة كل تجديد للجيش أو اصلاح له ، وعندما نجح في التخلص منهم أوعز الى علي رضا باشا أن يقوم بمذبحة مماثلة في العراق للتخلص من المماليك وقام هذا بما أوعز به السلطان اليه •

وبعد أن تم القضاء على المماليك صـــدر الأمر باستصفاء أملاكهم وما حصلوا عليه طيلة مدة حكمهم الذي استمر ثمانين ســـنة تقريباً • وانتدبت الدولة رجلاً خبيراً بالشؤون المالية والحسابية اسمه عارف أفندي

---

(١) انظر تفاصيل المذبحة في الجزء الأول من هذا الكتاب ـ الفصل العاشر •

الدفتري ، فوصل هـذا الى بغداد عـلى عجل ، وأخذ جلاوزة الوالـي يطـاردون أقارب المماليك ونساءهم ويعذبونهم لكـي يعترفوا بمواضـع ثرواتهم المخبوءة والذهب المدفون ، وكان أولئك الجلاوزة لا يترددون ان يضعوا سيقان النساء في « الفلقة » ويكووا أبدانهن بالسفافيد المحماة بالنار بغية قسرهن على البوح بالأسرار ، غير أن الحصيلة من ذلك لم تكن وافرة كما كانوا يتوقعون • وقد وضعت الحصيلة في المزاد ثم أرسلت المبـالغ الناتجة عنها الى « الجيب الهمايوني » في اسطنبول(١) •

شخصية علي رضا :

ان علي رضا باشا هو في الأصل من أهل طرابزون الواقعة على البحر الأسود ، وينتمي الى قبيلة اللاظ ــ أو اللاز كما تلفظ في اللغة التركية ــ ولهذا اشتهر باسم « علي رضا اللاظ » • وقد وُصف هذا الوالي عند مجيئه الى العراق بأنه كان بديناً في الخمسين من عمره يضع الطربوش على رأسه ويبدو عليه الشيء الكثير من سحنة التتر ولكن بشكل مقبول(٢) •

ويقول المؤرخ لونكريك عنه ما نصه : « بقي علي رضا باشا رأسـاً للحكومة في بغداد وملحقاتها البصرة وكركوك مدة احدى عشرة سنة • وقد أبدى خلال اشتغاله في هذه المدة شيئاً من حرية الفكر • وكان كرمه مضرب الأمثال ، كما كانت سماجته مختفياً قسم كبير منها وراء اعتداله • وكان يتلائم مع دعاة التقدم من الاجانب ، لأنه كان خلواً من التعصـب والاندفاع بالكلية • يضاف الى ذلك أنه كان ذا أخلاق سامية ، وله رغبة في عمل الخير الحقيقي ، زيادة على ميوله الأدبية والعلمية • على أنه كان

---

(١) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) بغداد ١٩٥٥ ــ ج٧ ص١٢ •

(٢) جيمس بيلي فريزر (رحلة فريزر) ترجمة جعفر الخياط ــ بغداد ١٩٦٤ ــ ص١٤٨ •

حاكماً فاشلاً حقاً ، فقد كانت خطته الوحيدة في حكم القبائل أن يحرك قبيلة على أخرى • وكان كسله وسمنه المفرط يمنعانه عن اجهاد نفسه في العمل ، فأصبح بذلك مضطراً للخضوع الى أسوأ المشاورين • ولم يك قادراً على ضبط المدن ولا القبائل ، ولا قواته الخاصة غير النظامية •• »[١] •

كان علي رضا باشا قد أبقى زوجته في حلب ولم يأت بها الى العراق ، ولكنه لم يمض على وصوله الى بغداد سوى شهرين ، أو أقل من ذلك ، حتى زفت له زوجة ثانية وهي فتاة « كرجية » حسناء من بنات المماليك تدعى سلمى خاتون • ويعلق سليمان فائق على هذا الزواج فيقول ما معناه ان بقاء الوالي في بغداد بدون زوجة يعتبر في نظر الأهالي من الأمور غير المألوفة فأشار عليه بعضهم باختيار زوجة له من بنات المماليك لا سيما وأن زوجته التي تركها في حلب لم تنجب له ولداً ذكراً[٢] •

لست أدرى الى أي حد يصح هذا التفسير الذي جاء به سليمان فائق ؟ أرجح الظن أن علي رضا باشا لم يكن يكترث لأقوال الناس بمقدار ما كان يكترث للذاته الخاصة ، ويبدو أنه كان مفتونا بالجمال « الكرجي » علماً بأن هذا الجمال كان يضرب به المثل في بغداد ، ولا يزال البغداديون حتى الآن اذا أرادوا وصف امرأة بالجمال المفرط قالوا عنها : « كأنها كرجية ! » •

الشائع عن علي رضا باشا أنه كان شديد الميل الى الخمرة وربما كان مدمنا عليها • قيل انه حين يعود مساءاً من حفلاته الداعرة في البساتين يكاد لا يقدر على المشي من شدة السكر ، ولعله بسلوكه هذا قد شجع الفساق

---

(١) ستيفن همسلي لونكريك (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) ترجمة جعفر الخياط ـ بغداد ١٩٦٢ ـ ص٢٨٥ •

(٢) سليمان فائق بك (تاريخ بغداد) ترجمة موسى كاظم نورس ـ بغداد ١٩٦٢ ـ ص١٨٢ •

على الاقتداء به فصارت رذيلة السكر في عهده عادة مألوفة مع العلم أنها كانت في عهد سلفه داود باشا من الأمور المعيبة التي يحاول اصحابها التكتم فيها(١) .

والمعروف عن علي رضا باشا أنه كان من أتباع الطريقة البكتاشية وهي طريقة صوفية تغالي في الأئمة الاثنى عشر غلواً شديداً . قيل انه كان اذا حل شهر محرم وهو الشهر الذي قتل فيه الامام الحسين اعتكف في قصره وترك الشهوات ، وكان له شاعر من أهل الكاظمية هو الشيخ صالح التميمي ، وقد نظم له هذا الشاعر قصيدة في رثاء الحسين فكان يقرأها له في شهر محرم(٢) .

بغداد في عهده :

كانت بغداد في بداية حكم علي رضا باشا قد فقدت القسط الاكبر من عمرانها وسكانها نتيجة تعاون الطاعون والفيضان عليها على نحو ما ذكرناه في الجزء الأول من هذا الكتاب . وقد أعطانا السائح البريطاني فريزر الذي زار بغداد في ١٨٣٤م وصفاً مريعاً للوضع الذي كانت عليه آنذاك : فقد انخفض عدد سكانها الى الخمسين ألفاً بعد ما كان قبل ذلك مائة وخمسين ألفاً ، ومات بالطاعون معظم التجار والصناع وأرباب الحرف ، وفي بعض الصناعات التي اشتهرت بها بغداد لم يبق من أصحابها أحد فاذا سألت عنها في الأسواق قيل لك : « آه ، ان ذلك لا يمكن الحصول عليه الآن لان جميع من كانوا مختصين بصنعه قد ماتوا »(٣) .

أما أبنية بغداد فقد قضى على معظمها الفيضان كمثل ما فعل الطاعون بالبشر ، وتقدّر المساحة التي هدم الفيضان أبنيتها في جانب الرصافة

---

(١) جيمس بيلي فريزر (المصدر السابق) ص٢٠٠ .
(٢) علي الخاقاني (شعراء الحلة) النجف ١٩٥٢ ـ ج٣ ص١٥٢ .
(٣) جيمس بيلي فريزر (المصدر السابق) ص١١٢ .

بما يناهز الثلثين من مجموع المساحة العامة ، فأصبحت كلها خرائب مليئة بالماء ، ومن الغريب أن مساحة كبيرة من الأرض قد انخسفت بتأثير الماء المتراكم وضغطه فكونت تجاويف وأوجار عميقة في البساتين الواقعة في القسم الجنوبي من المدينة ما بين دجلة ومحلة باب الشيخ ، وأخذت حتى الابنية التي ظلت قائمة يظهر عليها الكثير من الشقوق المخطرة من جراء تأثير الماء على أسسها • وكان جانب الكرخ أكثر تهدماً وخراباً من جانب الرصافة اذ لا يمر الانسان هناك الا بين جدران متهدمة أو مائلة للانهدام ، وانقاض ما كان في يوم من الأيام كتلة كثيفة من المساكن • أما سور المدينة في كلا الجانبين فهو متهدم كذلك ومتداع تظهر فيه الثغرات الكبيرة التي دخل منها ماء الفيضان الى المدينة(١) •

وكان قصر داود باشا الفخم الذي بذل في عمرانه وتزيينه المال الكثير قد ناله الخراب أيضاً ، والمظنون أنه كان في محل « القشلة » الحالية مشرفاً على النهر ، فاضطر علي رضا باشا الى النزول في احدى الدور التي لم ينلها الخراب من دور المماليك ، ثم أمر باعادة بناء السور لقصر داود باشا بغية جعله ثكنة لجنوده(٢) •

وفي الوقت الذي كان فيه الخراب لا يزال سائداً في بغداد عاد وباء الطاعون اليها مرتين ، وقد حصد في المرة الأولى خمسة آلاف شخص، وفي الثانية سبعة آلاف • وكان الوباء الأخير قد وقع في أيار من عام ١٨٣٤م حيث انتقل الى العراق من كرمانشاه ، وكان القنصل البريطاني قد حذّر الوالي من سوء العاقبة قبل حلول الوباء ونصح بمنع مجيء القوافل الى بغداد غير أن الوالي لم يعمل بنصيحته ، وقيل انه كان يطمع بالأتاوي التي يقبضها من الزوار الايرانيين • وعندما ظهرت أولى بوادر الوباء أخذ

(١) المصدر السابق ـ ص٢١٩ ـ ١٣٠ •
(٢) المصدر السابق ـ ص١٣٠ •

الكثير من سكان بغداد يهربون منها نحو القرى والبراري ، وكان اليهود من جملة الهاربين اذ خرجوا كلهم فنجوا[١] •

يمكن القول ان بغداد لم تشهد طيلة قرون عديدة كارثة مثل تلك الكارثة حيث تتابعت عليها ثلاثة طواعين في خلال ثلاث سنوات علاوة على الفيضان المدمر • وقد ظلت ذكرى هذه الطواعين عالقة في أذهان البغداديين حتى زمن متأخر ، فصاروا يؤرخون بها كما أرخ عرب الجاهلية بعام الفيل • وقد أدرك كاتب هذه السطور في صباه الناس وهم اذا أرادوا وصف أحد منهم بالهرم قالوا عنه انه « يفطن على الطواعين » ، والمظنون أنهم كانوا يقصدون بها الطواعين الثلاثة التي حدثت في بغداد بين عام ١٨٣١م وعام ١٨٣٤م •

جلاوزة الوالي :

في الوقت الذي كانت فيه بغداد على الوضع السيء الذي ذكرناه آنفاً كان للوالي جلاوزة يعاونونه في الحكم ويُعدّون من أشد الناس ظلماً ودناءة ، فكانوا يقسون على الناس في الجبايه ويغتصبون الاموال منهم ويؤذونهم في كل سبيل • وقد رأينا نموذجاً من مظالمهم في تعذيبهم لنساء المماليك من أجل استصفاء أموالهم •

اشتهر من هؤلاء الجلاوزة ثلاثة هم : علي أغا اليسرجي ، وعبدالقادر ابن زيادة الموصلي ، وعلي أفندي الذي اشتهر في بغداد باسم « الملا علي الخصي » • وقد ورد وصف لهؤلاء الثلاثة في كتاب مجهول المؤلف مكتوب بلغة قريبة من العامية ، والظاهر ان المؤلف عاصرهم وشهد أعمالهم فهو يروي في كتابه شيئاً من مظالمهم ، ويحسن بنا نقل بعض ما كتب في هذا الصدد لكي يطلع القاريء به على المرحلة الاجتماعية التي كان يعيش العراقيون فيها آنذاك •

---

(١) المصدر السابق ـ ص١١٣ •

قال المؤلف عن أحد اولئك الثلاثة وهو علي أغا اليسرچي : « كان لا يعرف سياسة الحكومة ، ولا يدرك شيئاً ، غير أنه يحبس المسلمين ويأخذ دراهمهم ، كما أنه كان مولعاً بالزنا، وتزوج امرأة فاحشة مجاهرة، وجعل يخلو نهاره معها ... » .

ثم قال المؤلف عن الجلواز الثاني وهو عبدالقادر الموصلي الذي كان يتولى أمر الكمرك في بغداد : « ... أتى مع الوزير علي باشا من حلب ، وكذلك فشا ظلمه في بغداد . ومن بعض ظلمه كان يتعاطى التجارة وهو وال على الكمرك ، وتأتيه المكاتيب من الشام وحلب وغيرها من شركائه وعماله ، ويخبرونه عن أجناس البضاعة وعن أسعارها ، فيرسل ما شاء ، واذا أراد تاجر من تجار بغداد أن يرسل من ذلك الجنس لم يدعه يرسل، بل يمنعه من ارساله ، وهذا دأبه الى أن وقف أمر التجار . وفي أيامه يأكل الناس أموال بعضهم بعضاً ويأتون اليه ويرشوه فيساعدهم على أكل أموال عباد الله . وهذا كان دأبه ، ولا يبالي من أحد ولا من علي باشا ، ولا من الحكيم العليم ... كان بخيلاً أبخل من كلب بني زائدة ، خماراً لواطاً ، يفحش في كلامه وسائر أوقاته ، خال من الكمال ومآثر السياسة ... من يرشوه برشوة وافرة يحكى مع الوزير ويأخذ له المنصب من امارة ومشيخة والتزام ميري وضمان وما أشبه ، ويصك له صكاً ... وجرى على هذه الحالة احدى عشرة سنة الى أن أكل جميع ايراد بغداد ، وصار عنده كنوز ، وكثرت أمواله . وكان عنده أربعة غلمان يلوط بهم ، اثنان مماليكه ، واثنان من أولاد الناس . وكل سبت يطلع خارج البلد ويعمل وليمة ويشرب الخمر مجاهرة ، وجعلها وظيفة على جلسائه من التجار ، كل أسبوع على واحد ، وهو أيضاً يوم عليه ، حمله على ذلك البخل وحب المال ، ومنهم ما يودون يعملون الوليمة ولكن يعملونها مخافة منه . ومناقبه أيضاً شنيعة جداً ، حتى انه تجرأ على رجل من أهل بغداد ، أمر بقتله في مربط خيله ، بسبب أنه متعرض بأحد غلمانه ، قتله ظلماً ولم يخف من

أولياء المقتول ولا من الوزير علي باشا • وله اخوان جعل واحداً والياً على البصرة ، والآخر على الحلة ، ويجلبون الأموال اليه ، ومع هذه الصولة ما تصدق يوماً بمائة درهم ، ولا أجاز شاعراً ••• » •

ويصب المؤلف معظم نقمتـه عـلى الجلواز الثالث ـ أي الملا علي الخصي ـ فهو يقول عنه : « ومبدأ أمره كان كاتباً في قرية الخالص •• رجل ذميم الخلقة ، وجهه وجه الخصي ، منهم من يدعى أنه خصي •• وله زوجة لم تلد منه ، ووجهه أمر مهول كوجه القرد بل اسوأ حالاً من القرد والخنزير • فالمذكور قدمه الوزير وجعله بمنزلة قائد الجيش ، وجعل بيده ميري العشائر ••• وهؤلاء المسلمون مظلومون حيث سابقاً كان يعطي الرجل خمسة عشر قرشاً والذي ضاعفها هذا الكلب ملا علي الخصي ••• وهذا الكلب الخصي يغصب عياناً مجاهرة ، ويفتخر بفعله ، والوزير علي باشا مطلع بذلك ولم يعارضه ولا ينهاه ••• فالخصي المذكور كان مقدماً عنده وكان يظهر الى خارج البلد وينهب سواد العراق وهم أعراب فلاحون ••• يأخذ أغنامهم وجميع مالهم من الدواب ، ويبيعونها على جزارين بغداد غنمهم ، والبقر يرمونها على أهالي البساتين ويحسبونها عليهم ، الدابة التي تباع بمائة يأخذون منهم ثلثمائة ، وأمثال ذلك ، حتى اذا مات شيء من هذه الدواب يقطعون اذناها ويجرونها بثمن دابة حية قبل تسليمهم اياها • ولزيادة طغيانه يحبس الناس في بيته ويضربهم أشد ضرب ولا يطلقهم حتى يأخذ منهم مالاً ، لا يستطيعون أداءه ويبيعون أملاكهم وهم مسجونون عنده في بيته ••• وأن أعجاماً تبعة ايران قطانين يبيعون القطن رمى عليهم جاموساً ويأخذ أضعافاً عن أثمانهن مضاعفة ، وعلى بياعين الحطب يرمي عليهم جاموساً ويأخذ كما يأخذ من المذكورين • والحيرة أن الاعاجم الذين ذكرناهم مساكنهم لا تدخل فيها الجمس وهم حائرون في بيعها ويدورون بها في الطرق ولا مأوى عندهم • ويدور في نفسه في الميدان فكلما رأى فرساً جيدة غصبها من مالكها قهراً ، وأخذ خيلاً من أصحابها

من شيوخ العرب وسائرهم بهذه الصورة ، والناس يخافون من سطوته وجوره • وكل هذه الفعال يعلم بها علي باشا الضال ، حتى أنه جاء الى الجسر يريد العبور فوجد امرأة مارة أمامه أيضاً تريد العبور فضربها بعصاة بيده كان يحملها برأسها ضربة شديدة فماتت من ساعتها ••• وهاشميون أدخلهم في قلم الميرى ، وأخذ منهم الخانة ، وجرت العادة الهاشميون ما يعطون ميري الخانة التي تؤخذ من غيرهم من العشائر ، وهذا الخبيث يأخذ أموال الرعية ويتصدق من بعضها على فقراء الناس • ووجوه أهل بغداد لا قدرة لهم عليه ، بل بعضهم يتأمل من اكرامه • فيا تعساً له من زمان ••• وجوه بغداد لم يكن أحد منهم يخاطب الوزير في هذا الخبيث مع أنه كان يوجد من أرباب العلم وأهل السادة ••• »[(١)] •

انتفاضة جميل زادة :

تُعتبر انتفاضة جميل زادة من أهم الأحداث التي حدثت في عهد علي رضا باشا ، وهي قد جرت في السنة الثانية من ولايته وكان المتزعم لها والمحرض عليها عبدالغني جميل زاده الذي كان يتولى يومذاك منصب الافتاء وهو جد أسرة آل جميل المعروفة الآن في بغداد •

كان السبب المباشر للحادثة هو أن احدى نساء المماليك وهي أرملة رضوان أغا ، وكانت سيدة علوية من أسرة نقيب مندلي ، قد التجأت الى عبدالغني تحتمي عنده من مطاردة الجلاوزة لها ، وأودعت لديه طلفها البالغ من العمر ست سنوات ، غير أن الجلاوزة لم يحترموا حماية المفتي لها فقبضوا عليها وعذبوها ، وقد أدّى تعذيبهم لها الى اكتشاف « مشارب » نحاسية مليئة بالذهب ، فغضب المفتي من ذلك واحتج لدى الوالي دون أن يجدى احتجاجه شيئاً •

لا نعرف تفاصيل ما حدث بعدئذ ، والمؤرخون ساكتون عن ذلك

---

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ج٧ ص٤٩ ــ ٥٥ •

لسبب لا نعرفه ، وكل ما لدينا من معلومات في هذا الشأن هو أن مظاهرة خرجت في يوم **٢٨** أيار **١٨٣٢**م من محلة قنبر علي وهي المحلة كان المفتي يسكن فيها فانضم اليها الكثيرون من أبناء المحلات الأخرى ، وتوجهت المظاهرة نحو السراي وهي تنوي الهجوم عليه كما يبدو • ثم وقعت معركة حامية بين المتظاهرين وحرس السراي سقط فيها عدد من القتلى ، وتقدمت المظاهرة نحو باب الحرم ، غير أن الوالي استطاع أن يلم شعثه ويعبيء جنوده ، فشتت شمل المتظاهرين ، ثم سلط مدافعه على محلة قنبر علي فأشعل فيها النار(١) • وقد نهبت دار المفتي ثم أحرقت ، فتلفت مكتبته الثمينة التي يقدر عدد كتبها بنحو سبعة آلاف(٢) •

واستطاع المفتي أن يهرب الى جانب الكرخ حيث التجأ هو وابن عمه عبدالرزاق الى عشيرة عقيل الساكنة هناك ، وقد تمكنت العشيرة من تهريبه مع ابن عمه الى بلدة عانه ، فبقي فيها سنة واحدة ثم عاد الى بغداد • ويقال ان الوالي استدعى عبدالغني بعد أن هدأت الفتنة وعرض عليه المقاطعات الجسيمة فلم يقبل منه ذلك ، وظل غاضباً ثائراً طيلة حياته وعبر عن غضبه وثورته بقصائد شديدة اللهجة عربية الروح والاندفاع • وقد جاء في قصيدة له يصور فيها حالة العراقيين وموقفهم منه قوله :

أجول بطرفي في العراق فلا أرى ... من الناس الا مظهر البغض والشحنا
فخيرهم للأجنبي وقبحهم ... على بعضهم بعضاً يعدونه حسنا
طوينا عن الزوراء لادر درها ... بساطاً متى ينشر يعدونه طعنا
واني وان كنت ابنها ورضيعها ... فقد أنكرتنا لاسقاها الحيا مزنا(٣)

---

(١) انظر مقالة جعفر الخياط في جريدة البلد البغدادية في عددها الصادر في ٢٢ كانون الثاني عام ١٩٦٤ •

(٢) محمود شكري الآلوسي (المسك الأذفر) بغداد ١٩٣٠ — ص ١٢٨ •

(٣) ابراهيم الوائلي (الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر) بغداد ١٩٦١ — ص١٦٨ — ١٧٠ •

وجهة نظر :

ذكرنا في الجزء الأول من هذا الكتاب رأياً للمؤرخ المصري الدكتور عبدالعزيز نوار حول ما قام به البغداديون عام ١٨٣١م من دفاع عن داود باشا ومحاربة للجيش السلطاني القادم ، فهو يرى أن البغداديين انما فعلوا ذلك بدافع وطني وقومي لأنهم كانوا يعتبرون داود باشا أجدر من الاتراك بحكم العراق وأن على السلطان أن يحترم مشيئة أهل البلاد في تعيين حاكمهم(١) .

وللدكتور نوار رأي آخر يشبه هذا الرأي فيما يخص انتفاضة جميل زادة ، اذ هو يعتقد أن تلك الانتفاضة كانت من وحي الفتح المصري لبلاد الشام ونتيجة التجاوب مع محتواه القومي . انه يقول في ذلك ما نصه :

« ... على أن الانتصارات المصرية في الشام (١٨٣١ - ١٨٣٢م) كانت أكبر دافع لعبدالغني في اعلان ثورته . ولدينا من الوثائق ما يكشف عن أن أهل بغداد كانوا على استعداد لفتح أبواب العراق بأسره لا أبواب بغداد فقط لاخوانهم عرب مصر . كان أهل بغداد في فرحة كبرى عندما علموا بأن الشام تحرر من حكم الولاة العثمانيين . ولم يكن عرب العراق يعرفون كثيراً عن محمد علي والي مصر ، وانما كانوا يعرفون الكثير عن مصر والمصريين وعن أصالة العروبة في مصر وعن تفوق الحضارة العربية بها ، فكانوا خلال نشوتهم بتلك الانتصارات المصرية يفخرون بجيش مصر العربي ويبدون دهشتهم بالفلاح المصري الذي ترك فأسه - التي عاش عليها فقط قروناً طويلة - الى المدفع والى الشراع والى الآلة والى الدراسات العالية . أدهشتهم رجولته في ميدان المعركة واتقانه للتشكيلات العسكرية بسرعة عجيبة . ان هذه النقلة ليست في الواقع نقلة فجائية ، وليست من عمل رجل واحد ، وانما هي تلبية لتطور عام كان يدفع بمصر نحو الدور

---

(١) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب - بغداد ١٩٦٩ - ص٢٨٢ .

الذي يجب أن يلعبه في تحقيق الهدف الطبيعي الذي كانت تتجه اليه البلاد العربية ، وهو توحيد البلاد العربية تحت حكومة واحدة • هذه المشاعر التي لم تكن واضحة من قبل وظهرت جلية عندما كسبت القوات المصرية انتصاراتها الأولى على أرض فلسطين سنة ١٨٣١م ••• فثورة عبدالغني جميل قررت أن ينفض أهل العراق أيديهم من الولاة العثمانيين ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، وأن يكون لأهل العراق رأيهم في الوالي الذي يتولى أمرهم ، بل وأن يكون من بينهم ، وأن يضعوا أيديهم في أيدي المصريين ••• »[1] •

يبدو لي أن الدكتور نوار تجنّب الموضوعية في رأيه هذا كما فعل في رأيه الأول ، ولعل الحماس قد دفعه الى أن يكون خطيباً بدلاً من أن يكون باحثاً • يجب أن لا ننسى أن أهل بغداد لم يكونوا في ذلك الزمن يتحسسون بمثل تلك الأحاسيس التي يريد الدكتور نوار أن ينسبها اليهم كمشاعر القومية والوحدة والعروبة وما أشبه ، فهذه لم تظهر في العراق بالصورة التي يصفها الدكتور نوار الا في عهد متأخر جداً •

غفل الدكتور نوار عن أمر كان الجدير به أن لا يغفل عنه هو أن انتفاضة جميل زادة حدثت قبل أن ينال الجيش المصري انتصاراته الكبرى في بلاد الشام ، فقد كان الجيش المصري آنذاك لا يزال يحاصر عكا وقد مضى على حصاره لها ستة أشهر دون أن ينال منها شيئاً حتى بدأ اليأس ينتشر بين المصريين وراجت الاشاعات المخذّلة بينهم على نحو ما ذكرناه في الفصل الاول • لا أنكر أن انتفاضة جميل زادة حدثت في اليوم التالي لليوم الذي سقطت فيه عكا بيد الجيش المصري وهو ٢٧ أيار ١٨٣٢م ، ولكن الذي يجب أن لا ننساه هو أن أهل بغداد لم تكن لديهم في تلك الايام

---

(١) عبدالعزيز نوار (ثورة ١٨٣٢ في العراق) مجلة الهلال ـ القاهرة ١ شباط ١٩٦١ ـ ص٢١ ـ ٢٣ •

وسائل مخابرات سلكية أو لاسلكية يستطيعون أن يطلعوا بها على أخبار العالم عند وقوعها كما هو الحال في أيامنا • ويرجح في ظني أن أكثر البغداديين الذين اشتركوا في مظاهرة قنبر علي لم يكونوا يعرفون شيئاً عن حصار عكا أو يهتمون به ، كل ما كانوا يعرفونه هو أن المفتي قد استنجد بالمغاوير من أبناء محلته ونخاهم لحماية « العلوية الشريفة » أرملة رضوان أغا ، فهبوا لنجدته كما هي عادتهم في مثل هذه الحالة •

حدثني حسين جميل المحامي ، وهو من أسرة عبدالغني جميل زادة ، نقلاً عن بعض الرسائل التي كتبها عبدالغني في بلدة عانة أثناء التجائه اليها بعد فشل ثورته أنه قال : « اني لم أثر على السلطان بل على مظالم الوالي التي حلت بالأهالي » • ان هذا القول ربما كتبه عبدالغني للدفاع عن نفسه تجاه السلطان الذي هو في نظر عبدالغني « ولي الأمر » والخليفة الذي تجب طاعته ، ولكنه على أي حال قول قد لا يخلو من الحقيقة قليلاً أو كثيراً •

الثمرة الناضجة :

قد يصح أن نقول ان انتفاضة جميل زادة حدثت قبل أوانها بفترة وجيزة ، فهي لو كانت تأخرت بضعة أسابيع لكان لها شأن يذكر ولربما كانت سبباً في تغيير مجرى التاريخ في العراق •

رأينا في الفصل الأول كيف انطلق الجيش المصري بعد سقوط عكا زاحفاً نحو الشمال بحيث اتم احتلال بلاد الشام كلها خلال مدة قصيرة ، ولابد أن نشير هنا الى أن ابراهيم باشا لم ينس وهو في زحمة انتصاراته أن يرسل دعاته وكتبه الى بعض عشائر العراق ومدنه يحرضهم على الانضمام الى حركته في العصيان على الدولة العثمانية ، وقد لقيت دعوته شيئاً من النجاح في شمال العراق •

ففي الموصل أعلن يحيى باشا الجليلي العصيان على الدولة ، وسانده

صفوق شيخ مشايخ شمر فانحدر نحو الجنوب وحاصر بغداد ثلاثة أشهر وأخذ يقطع الطرق وينهب القرى • وانتهز الفرصة محمد باشا أمير راندوز الذي اشتهر باسم « ميركور » ـ أي الأمير الأعور ـ فاستولى على أربيل وزاخو ودهوك وجزيرة ابن عمر ، واجتاح بعض القرى القريبة من الموصل ، فكانت أنباء انتصاراته تصل الى القيادة المصرية في الشام والقاهرة فتلقى فيها ترحيباً ، وقيل ان اتفاقاً حصل بينه وبين محمد علي باشا على استقلال كردستان تحت رئاسته •

ظن هؤلاء الثائرون الثلاثة ـ أي يحيى باشا ومحمد باشا والشيخ صفوق ـ أن جيوش مصر ستدق عن قريب أبواب العراق المتداعية وأن الحكم العثماني سينهار فيه ، فأخذ كل واحد منهم يسعى نحو توسيع نصيبه من الأسلاب قبل فوات الأوان • ولو أن جميل زادة كان قد قام بانتفاضته في ذلك الحين لأصاب نجحاً غير قليل •

يمكن القول بوجه عام أن العراق كان في صيف ١٨٣٢م أشبه بالثمرة الناضجة ، وكان في مقدور ابراهيم باشا أن يقتطفها بسهولة لو أراد ، ولكنه كان فيما يبدو غير راغب في ذلك اذ كان همه منصباً على فتح اسطنبول ، وتشير بعض القرائن الى أنه كان لا يميل الى فتح العراق ويعتبره من الأقطار التي تضر من يفتحها اكثر مما تنفعه ، فهو لا يريد حكم العراق حتى في حالة موافقة الدولة العثمانية على ذلك[١] •

عنزة تهدد بغداد :

حين تم عقد الصلح بين محمد علي باشا والدولة العثمانية في نيسان ١٨٣٣م بدأت الدولة تنتقم من الذين انتهزوا فرصة الحرب وأعلنوا تعاونهم مع المصريين ، وقد تمكنت الدولة من عزل يحيى باشا الجليلي في الموصل

---

(١) عبدالعزيز نوار (تاريخ العراق الحديث) القاهرة ١٩٦٨ ـ ص ٢٣٠ •

ومن القاء القبض على الشيخ صفوق ونقله الى اسطنبول مخفوراً كما تمكنت من القضاء على محمد باشا أمير راوندوز •

ومرت على العراق بعد هذا فترة هادئة نسبياً خلا فيها من الفوضى وعيث العشائر الى حد ما ، ولكن هذه الفترة لم تدم طويلاً • ففي النصف الثاني من عام ١٨٣٤م أحاط ببغداد خطر جديد هو الخطر الآتي من عشيرة عنزة •

كانت عشيرة عنزة من أشد العشائر العراقية بداوة اذ هي جاءت من نجد منذ عهد قريب واشتبكت مع عشيرة شمر التي جاءت قبلها في نزاع عنيف أربك المجتمع العراقي زمانا طويلاً • وفي صيف ١٨٣٢م عندما كانت عشيرة شمر تهدد بغداد أرسل الوالي علي رضا باشا الى عشيرة عنزة يستعين بها على قتال شمر ، فجاءت عنزة على عجل وهي تطمع بمكافأة كبيرة أو غنائم وافرة ، ولكنها لم تحصل من ذلك على شيء لأن عشيرة شمر انسحبت من تلقاء نفسها دون حرب ، وبقيت عنزة بالقرب من بغداد تطالب الوالي بالمكافأة التي كان قد وعدها بها • وتوترت العلاقة بينه وبينها فهي تريد منه المكافأة وهو يرفض اعطاءها •

اضطر الوالي في هذه المرة أن يستعين بعشيرة شمر لقتال عشيرة عنزة ، وجاءت شمر تريد الانتقام من عدوتها التقليدية • وفي يوم ١٢ تشرين الثاني من عام ١٨٣٤م نشبت معركة طاحنة على مقربة من بغداد بين عشيرة عنزة من جانب ، وجيش الوالي مع عشيرة شمر من الجانب الآخر ، وقدر عدد المقاتلين من عشيرة عنزة بخمس وثلاثين ألفاً ، وانتهت المعركة بانتصارهم ، غير أنهم تركوا جيش الوالي وأخذوا يطاردون أعداءهم الشمريين ، وكانت هوساتهم : « خل النظام واقتل الجربا »(١) ، ومعناها : اترك جنود الحكومة واقتل عشيرة شمر •

---

(١) جيمس بيلي فريزر (المصدر السابق) ص١٣٣ ـ ١٣٤ •

وبعد انتهاء المعركة أصبحت المنطقة المحيطة ببغداد في حالة من الفوضى وفقدان الأمن لا تطاق ، فقد سيطرت عنزة على القرى والطرق ، وأخذ القرويون والرعاة وأهل البساتين يتركون أماكنهم ويلجأون الى داخل أسوار بغداد يحتمون بها ، فاكتضت بغداد بهم وامتلأت الطرقات والأزقة بحيث لا يستطيع الانسان أن يسير فيها الا بصعوبة •

كان السائح البريطاني فريزر يومذاك في بغداد ، وفي ٢٨ تشرين الثاني كتب الى زوجته رسالة يصف فيها وضع بغداد وما حولها فقال : ان بغداد لا تزال في حالة حصار فليس في وسع أحد أن يخرج وراء السور الى مسافة مهما كانت قريبة من غير أن يتعرض للسلب في أغلب الاحتمال ، وقد جعل رجال عنزة مركز تجمعهم في عقرقوف قرب الكاظمية ومد وا رواق سيطرتهم على الصحراء الواقعة بين دجلة والفرات كما استولوا على طريق الحلة بحيث لا يمكن لاي أحد أن يسافر في ذلك الاتجاه ، وانتهز اللصوص والاشقياء في بغداد الفرصة فأخذوا يخرجون للسلب باسم رجال عنزة ، وصار سير القوافل غير آمن الا اذا كان مع كل قافلة حرس قوي ، وعاد الكثيرون من المسافرين وقد سلبت حتى ملابسهم • والأدهى من ذلك أن السلب شمل رجال الوالي في مواضع قريبة من أبواب المدينة ، وكان من بينهم يوسف بك الذي يتولى وظيفة « باب العرب » أي ادارة شؤون العشائر • وقبل يومين سمع اطلاق النار من موضع قريب من الست زبيدة وتبين أن جماعة من عنزة هاجموا ذلك الموضع ونهبوا كل ما فيه من ابل وأغنام وغير ذلك(١) •

معركة داخل بغداد :

بينما كانت الفوضى لا تزال ضاربة أطنابها خارج اسوار بغداد ، بدأت معركة عنيفة داخل الاسوار بين جنود الوالي وعشيرة عقيل الساكنة

(١) المصدر السابق ــ ص١٧٢ ــ ١٧٣ •

في جانب الكرخ ، وقيل ان سبب المعركة هو أن الوالي كان حانقاً على تلك العشيرة ثم اشتد حنقه عليهم مؤخراً حين وصل الى علمه أنهم شاركوا في بعض أعمال النهب والسلب التي حدثت خارج الاسوار • فأرسل اليهم أمراً بمغادرة بغداد فوراً والا فهو سيضطر الى طردهم منها بالقوة ، ولما وصل الأمر اليهم حاولوا المفاوضة مع الوالي فلم ينفعهم ذلك شيئاً • وفي صباح ٤ كانون الاول ١٨٣٤م بدأت المعركة بين الفريقين ، فكانت معركة دموية طاحنة استمرت طيلة النهار •

بدأت المعركة حين أسرعت جماعة من عقيل فقطعت الجسر من جهة الكرخ ثم تجمعت في مقهى قريب من رأس الجسر وأخذت تطلق منه الرصاص على جانب الرصافة • فتقدم رهط من الجنود من الرصافة فعبروا القسم الباقي من الجسر واتخذوا لهم مواضع في داخل قواربه ثم صوبوا نيرانهم على المقهى ، ونصب جنود آخرون مدفعين على الشاطيء لقصف جانب الكرخ ومقاهيه الملأى بأفراد عقيل •

وفي الساعة الثانية بعد الظهر أرسل الوالي الى المقيم البريطاني يطلب منه أن يعيره يخته الكبير المصنوع في بريطانيا لكي يستخدمه في القتال ، فاستجاب المقيم البريطاني له وأعاره اليخت ، واستطاعت زمرة من الجنود أن يركبوا اليخت تحت وابل من الرصاص ، وتوجهوا به نحو بساتين الكرخ فنزلوا هنالك ، واستطاعت زمرة أخرى أن يعيدوا نصب الجسر وعبروا عليه •

وعند حلول الظلام انتهت المعركة بهزيمة عقيل وانتصار جنود الوالي ، غير أن شيئاً أبشع من المعركة بدأ حينذاك حيث انثال الجنود على جانب الكرخ يعيثون فيه كما يشتهون • فقد نهب الجنود الأسواق واشعلوا النار فيها ، ثم اتجهوا نحو المنازل فنهبوها كذلك وأخذوا ينتهكون حرمات النساء ويسيئون اليهن اساءة لا توصف ، وصار زعيق النساء يُسمع من

جانب الرصافة .

ومن الفضائع التي جرت في تلك الليلة المرعبة أن جندياً ألبانياً حاول اغتصاب امرأة فمانعته عن نفسها ممانعة شديدة مما أدى به وهو في سورة الشهوة والغضب الى أن يقتلها ، وقد نُقلت جثتها في اليوم التالي الى مرقد الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، فألقيت على عتبة المرقد ، فأمر نقيب الاشراف بأن تُدفن كما يدفن الشهداء . ويحكى أيضاً أن جندياً دخل أحد بيوت الكرخ للنهب فأزعجه صراخ طفل فيه فأسرع فألقاه في التنور ظناً منه أنه يلقيه في البئر ، ثم خرج يتباهى بفعلته أمام الناس ، ولما وصل الخبر الى أمه المسكينة أسرعت الى البيت وجاءت بمن ينزح لها البئر . وبينما هم يهمون بالخروج بعد أن يئسوا من العثور على الطفل سمعوا صوت صراخه في التنور[1] .

وفي اليوم التالي للمعركة ، أي في ٥ كانون الاول ١٨٣٤م ، كتب فريزر الى زوجته يصف لها ما شاهده بنفسه في بغداد من ذيول ما جرى بالأمس فقال انه كان في فترة الصباح والنهار كله يرى الناهبين وهم يمرون أمامه حاملين أسلابهم ، فكان أحدهم يسحب خروفاً وراءه ، وآخر يحمل شدة من الدجاج المربوط الى بعضه ، وثالث يحمل الكثير من القدور والأواني والفراش أو السجاد ، ورابع يمسك بيده حزمة من لوازم النساء وملابسهن ، وخامس يسوق أمامه حمارين أو ثلاثة وهي محملة باكياس كبيرة تحتوي على خليط من كل شيء . وفي تلك الآونة جاء الى فريزر أحد الجنود يعرض عليه فرساً ويقول انه غنمها أثناء المعركة ، وقد تعجب الجندي حين وجد فريزر يمتنع من شراء الفرس .

والغريب أن جانب الرصافة امتلأ يومئذ بالمنهوبين علاوة على الناهبين ، فمنذ الساعات المبكرة من الصباح ازدحمت الأزقة باللاجئين

---

(١) المصدر السابق ـ ص١٨٧ ـ ١٨٨ .

القادمين من جانب الكرخ ، فكان الكثيرون منهم عراة أما الذين كانوا أسعد حظاً منهم فكانوا يحملون معهم ما استطاعوا حمله من لوازمهم ، وقد شاهد فريزر النساء يضربن بأيديهن ويولولن بينما كان الرجال عابسين مكتئبين أو يصخبون ويشتمون • وقد تُسمع أحيانا في زاوية من الزوايا امرأة تمزق الهواء بصراخها وعويلها حزناً على طفلها أو زوجها الذي غرق في النهر أثناء العبور بالقفف ، أو من أجل ضياع ممتلكاتها وأثاث بيتها الذي اختطفه الناهبون على مشهد منها • ومن أطرف ما ذكره فريزر في رسالته هو أن بعض حوادث النهب قد تقع بين الناس وهم في مثل تلك الحالة ، فقد ينقضّ رجل على خروف رجل آخر فيأخذه ويولي هارباً[1] • ان هذا يدل على القيم الاجتماعية ذات الجذور المتغلغلة في أعماق النفوس •

أبو الثناء الآلوسي :

كان أبو الثناء الآلوسي من أهم الشخصيات العراقية في عهد الوالي علي رضا باشا ، فقد تولى منصب الافتاء فيه وكانت له شخصية مؤثرة ظل تأثيرها باقياً في الكثير من الناس حتى عهد متأخر • والواقع ان سيرة هذا الرجل تصور لنا جانباً مهما من الوضع الفكري والديني الذي كان سائداً في العراق حينذاك •

وُلد الآلوسي في الكرخ في أواخر ١٨٠٢م ، وهو من أسرة علوية النسب وكان أبوه السيد عبدالله أفندي مدرساً في جامع أبي حنيفة • وقد نشأ الآلوسي نشأة دينية وظهر عليه النبوغ في سن مبكرة ، وحين بلغ العقد الثالث من عمره صار مدرساً في عدة مساجد كمسجد الحاج أمين الباچچي ، ومسجد الملا عبدالفتاح ، ومسجد القمرية ، ومسجد السيدة نفيسة ، وجامع

(١) المصدر السابق – ص١٨٥ – ١٨٨ •

مرجان ، حتى بلغت دروسه في اليوم أربع وعشرين درساً[1] ، ولهذا كثر حساده ومبغضوه كما هو شأن النابغ الذكي في محيط اجتماعي ضيق •

كان داود باشا يعطف على الآلوسي ويحميه ، وحين قام أهل بغداد في عام ١٨٣١م لتأييد داود باشا ضد الجيش السلطاني انضم الآلوسي اليهم، ولما انكسر أهل بغداد ودخل علي رضا باشا الى بغداد فاتحاً على رأس الجيش السلطاني خاف الآلوسي وذهب ملتجئاً الى محلة باب الشيخ فاختفى في سرداب فيها وظل فيه ثلاثة أيام لا يخرج منه ، ثم شفع له بعدئذ المفتي عبدالغني زادة فعفا الوالي عنـه وعينـه أميناً للفتوى ووجه اليه وظيفـة التدريس في المدرسة القادرية ، ولكن الآلوسي لم يهنأ بوظيفته الجديدة طويلاً اذ سرعان ما حدثت الانتفاضة التي قام بها المفتي فاشترك الآلوسي فيها حيث ذهب الى جانب الكرخ يحرض الناس على تأييدها • ولما أخفقت تلك الانتفاضة اضطر الآلوسي الى الاختفاء للمرة الثانية ، وكانت هذه المرة أشد عليه من المرة الأولى حتى قيل ان علي رضا باشا كان يبحث عنه يريد قتلـــه[2] •

وقد جاءه الفرج في هذه المرة على يد بعض شيوخ الطريقة النقشبندية اذ تشفعوا له عند الوالي ، فقبل الوالي شفاعتهم فيه ، ولكن الآلوسي لم يهنأ بهذه الشفاعة فقد كان النقيب محمود أفندي الكيلاني يبغضه ويريد الكيد به ، ثم وشى به لدى الوالي فأمر الوالي بتحديد اقامته في محلة باب الشيخ لا يخرج منها • وظل الآلوسي مقيماً في باب الشيخ سنة ونصف سنة يتجرع الويل من عدوه النقيب •

---

(١) محســن عبدالحميد (الآلوسي مفســراً) بغــداد ١٩٦٩ ــ ص٤٢ ــ ٤٣ •

(٢) عبدالعزيز نوار (مواقف سياسية لأبي الثناء محمود الآلوسي) المجلــة التاريخية المصــرية ــ المجلد الرابع عشــر ــ القاهرة ١٩٦٨ ــ ص١٤٩ ــ ٥٢ •

جاءه الفرج أخيراً في احدى ليالي رمضان من عام ١٢٥٠هـ ـ الموافق لشهر كانون الثاني من عام ١٨٣٥م ـ ففي تلك الليلة جاء الوالي لزيارة جامع الشيخ عبدالقادر وجلس يستمع الى مجلس الوعظ فيه على عادة الولاة العثمانيين ، والظاهر أن الآلوسي انتهز تلك الفرصة فارتقى المنبر وأخذ يلقي خطبة نالت اعجاب الوالي كثيراً ، ويروى عن الوالي أنه قال حينئذ عن الآلوسي : ان هذا الرجل لو كان في اسطنبول لصار شيخ الاسلام[(١)] . وبعد انتهاء الخطبة أرسل الوالي اليه يطلب منه أن يأتي لمقابلته في اليوم الثاني من عيد الفطر .

ذهب الآلوسي لزيارة الوالي في اليوم المعين فنال لديه حظوة كبيرة ، وأعاد اليه الوالي جميع وظائفه التي أخذت منه ، وتوطدت الصداقة بينهما ، فكان يذهب لزيارة الوالي في الاسبوع مرتين ، وكان المخاطب الوحيد في مجلسه من بين العلماء والأعيان[(٢)] .

كان محمد سعيد أفندي الطبقجلي هو المفتي في ذلك الحين ، وصادف ذات يوم أن كان هذا المفتي في مجلس الوالي وجاء ذكر أبي طالب عم النبي فقال عنه انه مات كافراً ، فاستاء الوالي من هذه الكلمة . وأراد الطبقجلي أن يبرهن على صحة قوله فجاء في اليوم التالي ومعه « زنبيل » مملوء بالكتب وهي كلها تؤيد قوله في كفر أبي طالب . وعند هذا اشتد غضب الوالي عليه وقال له موبخاً : « هل أنت خصم لعم الرسول ؟! » . ثم التفت الوالي نحو الآلوسي وكان حاضراً فسأله عن رأيه في الموضوع فكان جواب الآلوسي أن أبا طالب مات مسلماً ، ثم أخذ الآلوسي يعدد أقوال القائلين بهذا الرأي من باب التأييد له . فأمر الوالي بعزل الطبقجلي من منصب

---

(١) عباس العزاوي (ذكرى أبي الثناء الآلوسي) بغداد ١٩٥٨ ـ ص ٥١ .

(٢) محسن عبدالحميد (المصدر السابق) ص٤٤ .

الافتاء وبتعيين الآلوسي مكانه[1] .

وانثالت الدنيا من بعد ذلك على الآلوسي ، فابتاع له داراً من أكبر دور بغداد تقع في محلة العاقولية من جانب الرصافة ملاصقة لجامع الشيخ عبدالله العاقولي[2] ، فكان له مجلس حافل فيها يرتاده العلماء والأدباء والكبراء ، وصار هذا المجلس سبباً في انتعاش الحركة العلمية والأدبية في عصره فكانت تعقد فيه ندوات المناقشة تحت رئاسة الآلوسي ويكون هو الحكم فيها[3] . ونظم الشعراء في مدحه القصائد كعبدالغفار الأخرس وعبدالباقي العمري وأحمد عزت العمري وعبدالحميد الاطرقجي وصالح التميمي وغيرهم[4] . وفي شهر أيار من السنة التالية أبعد الوالي عدوه النقيب محمود الكيلاني الى السليمانية[5] ومات هذا في المنفى ، فاستراح الآلوسي من مكايداته وخلا له الجو .

طاعة السلطان :

ان طاعة السلطان من المواضيع الفقهية التي ثار حولها الجدل بين الفرق الاسلامية منذ صدر الاسلام ، وقد أثير الجدل حوله من جديد على أثر اعلان محمد علي باشا العصيان على الدولة العثمانية كما أشرنا اليه في الفصل الاول حيث انقسم الفقهاء الى فريقين أحدهما يوجب طاعة السلطان والآخر لا يوجبها .

---

(١) عباس العزاوي (المصدر السابق) ص٥١ ـ ٥٢ .

(٢) محمد بهجة الأثري (اعلام العراق) ـ القاهرة ١٣٤٥هـ ـ ص ٢٣ .

(٣) ابراهيم الدروبي (البغداديون ـ اخبارهم ومجالسهم) بغداد ١٩٥٨ ـ ص٢٧ .

(٤) محمد بهجة الأثري (المصدر السابق) ص٢٤ .

(٥) عباس العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين) بغداد ١٩٥٥ ـ ج٧ ص٣١ .

كان العراق مباءة لهـذا النوع من الجدل في صدر الاسلام لتتابـع الثورات فيه ، وقد اشتد الجدل فيه عندما احتلت الجيوش المصـرية بلاد الشام حيث أخذت الدعاية المصرية تجد آذاناً صاغية في بعض انحاء العراق لا سيما في الشمال منه • والمظنون ان علي رضا باشا كان يبحث عن فقيه عراقي كبير ليكتب كتاباً يؤيد فيه جانب الدولة ويفنّد حجة الثائرين عليها•

يخيل لي أن علي رضا باشا حين أعلن اعجابه بالآلوسي بعد سماعه لخطبته كان كأنه اكتشف فيه الرجل المطلوب • والواقع أن الآلوسي كان عند حسن ظن الباشا ، فقد استجاب له بسرعة وانكب على تأليف كتاب عنوانه « التبيان في شرح البرهان في اطاعة السلطان » •

ان هذا الكتاب هو شرح لكتاب صغير كان قد ألفه سـابقاً الشيخ عبدالوهاب أفندي ياسين چچي زادة • وقد افتتح الآلوسي شـرحه بتدبيج مدائح طويلة في السلطان وفي الوالي ثم أخذ بالبحث في شـرعية وجود الدولـة العثمانية ووجوب طاعة سلطانها عـلى جميع المسلمين ، فجـاء بالادلة على ذلك من الكتاب والسنة وشرحها شرحاً وافياً • ثم عقد فصلاً في قضية الامامة من وجهة نظر أهل السنة ووجهة نظر الشيعة ، فجادل الشـيعة جدلاً طويلاً وفنّد عقيدتهـم في قاعـدة اللطف وفي المهـدى المنتظر(١) •

ولـم يكتف أبو الثناء الآلوسي بذلك ، بل كتب بايعاز من الوالي رسالة الى شـريف مكة محمد بن عون يدعوه فيها الى التمسـك بالولاء للسلطان ويذم محمد علي باشـا على عصيانه ويصفه قائلاً : « محمد علي المصري المصرّ على ما يسيء ويزري ••• أراد حسب زعمه الفصل بين الشجر ولحائه ••• فقد ذهب كثير من الأئمة الاخيار الى أن قتال البغاة أفضل من جهاد الكفار »(٢) •

---

(١) محسن عبدالحميد (المصدر السابق) ص١٠٩ ـ ١١١ •
(٢) عبدالعزيز نوار (مصر والعراق) القاهرة ١٩٦٨ ـ ص١٥٣ •

وقد ارتفعت منزلة الآلوسي لدى الدولة من جراء ذلك ارتفاعاً عظيماً ، فمنحه السلطان رتبة « تدريس الاستانة » وهي رتبة فخرية ، كما أجازه الوالي بتولية أوقاف مرجان وهي أوقاف تدر خيراً كثيراً .

لماذا ؟

ان الموقف الذي وقفه أبو الثناء الآلوسي في تأييد السلطان ضد الثائرين عليه لا يخلو من غرابة . فالآلوسي شارك سابقاً في ثورتين على على السلطان : احداهما مع داود باشا في عام ١٨٣١م ، والثانية مع عبدالغني جميل زادة في السنة التالية . فما هو السبب الذي جعل الآلوسي يغير موقفه بهذه السرعة ؟!

يرى الدكتور يوسف عزالدين في تفسير ذلك أن موقف الآلوسي في تأييد السلطان انما كان من قبيل التقية والمجاراة ، وقد وصف الدكتور عزالدين الوضع الفكري الذي كان سائداً في العراق آنذاك بقوله : « لذلك كان اصحاب الآراء يضطرون للمحاورة والتقية ومجاراة الولاة الذين لا يرعون الا ولاذمة وبذلك يأمنون على أنفسهم من بطشهم حتى أن أبا الثناء الآلوسي لم يجد ما يدفع عنه غائلة الاضطهاد واعادة حقوقه المهضومة الا بتأليف كتاب كان يعتقد في قرارة نفسه بطلانه الا وهو شرح (البرهان في اطاعة السلطان) ذلك الكتاب الذي أجازه عليه علي رضا باشا والي بغداد بتوليته أوقاف مدرسة جامع مرجان ولم يكتف الباشا بذلك بل جلب له رتبة (تدريس الاستانة) من الاستانة ونصبه مفتياً للحنفية »[١] .

ان هذا القول الذي جاء به الدكتور عزالدين لم يوافق عليه أحد الذين كتبوا في سيرة الآلوسي وهو محسن عبدالحميد فرد عليه مدافعاً عن

---

(١) يوسف عزالدين (الشعر العراقي أهدافه وخصائصه في القرن التاسع عشر) بغداد ١٩٥٨ ـ ص٤٩ ـ ٥٠ .

الآلوسي اذ قال في ذلك ما مضمونه : ان الآلوسي لم يكن بالرجل الذي يبيع دينه بدنياه فهو لم يؤلف كتابه في أيام اضطهاده آملاً أن تعاد له حقوقه المهضومة بل ألّفه بعد اعادة حقوقه وتعيينه مفتياً ، وهو انما فعل ذلك عن عقيدة راسخة لان الواجب الديني في ذلك العصر المفعم بالأخطار والمؤامرات على الاسلام كان يفرض ذلك عليه وعلى أمثاله ، أضف الى ذلك أن الصراع الطائفي دفع علماء السنة في العراق - ومنهم الآلوسي - أن يبذلوا المستحيل في سبيل ناصرة الدولة العثمانية السنية الحنفية[١] •

مهما يكن الحال فان الآلوسي قد أدى خدمة كبيرة للدولة العثمانية في تلك الفترة الحرجة التي كثر الثوار عليها فيها من مختلف الجهات • يقول الدكتور عبدالعزيز نوار : « لقد قدّر علي رضا قيمة ابى الثناء الآلوسي في خدمة مصالح السلطان العثماني في تلك الظروف الحرجة التي تحتاج الى رجل علم يستطيع أن يثبّت قلوب الناس على الولاء للسلطان • وقر رأي علي رضا على أن يستغل علم وذكاء أبى الثناء الآلوسي في تنفيذ أهدافه في العراق وخارج العراق ، وخاصة في مقاومة تيار التوسع المصري • ولا شك أن تكليف علي رضا لأبي الثناء الألوسي بشرح (البرهان في طاعة السلطان) في تلك الظروف كان جزءاً من مخطط عام وضعه علي رضا لجعل العراق قاعدة فكرية وعسكرية تعمل ضد التوسع المصري في المشرق العربي »[٢] •

بين الرفض والتسنن :

أشرنا من قبل الى أن الوالي علي رضا باشا كان بكتاشي العقيدة يغالي في حب الأئمة الاثني عشر ، والظاهر ان الشعراء اكتشفوا هذه النزعة فيه فصاروا ينظمون القصائد في مدح أهل البيت وذم أعدائهم بشكل صريح

---

(١) محسن عبدالحميد (المصدر السابق) ص١١٢ - ١١٣ •

(٢) عبدالعزيز نوار (مواقف سياسية لأبي الثناء الآلوسي) المجلة التاريخية المصرية - المجلد الرابع عشر - القاهرة ١٩٦٨ - ص١٥٢ - ١٥٣ •

غير مألوف سابقاً ، وكان أشدهم في ذلك هو الشاعر الموصلي المعروف عبدالباقي العمري •

نظم عبدالباقي العمري ديوانا خاصاً بمدح أهل البيت سماه « الباقيات الصالحات » ، وحين نقرأ هذا الديوان نكاد نشعر أن العمري انما نظمه تقرباً من الوالي واكتساباً لرضاه ، فالقصائد التي فيه تتضمن نزعة شيعية واضحة وقد اشتهر بعضها في أوساط الشيعة شهرة واسعة حتى صار « المداحون » يتلونها في الطرقات و « الروضخونية » يقرأونها في مجالس التعزية •

افتتح العمري ديوانه هذا بقصيدة طويلة تحتوي على ١٥٨ بيتاً وفيها الشيء الكثير من مدح أهل البيت وذم بني أمية • ننقل فيما يلي أبياتاً نموذجية منها :

جعلت حبي وموالاتي لهم	وعرض مدحي لنجاتي سببا
سفن النجا معاقل للالتجا	تلوح شرّعاً وتبدو هضبا
جربتهم لقمع كل معضل	من سقم قد أعجز المطببّا
فقل لمن أعيا الطبيب داؤه	خلّ الطبيب واسأل المجربا
يزيد غيظي كلما ذكرتهم	فألعن الذي لها قد شعبا
الى يزيد دون ابليس اذا	ما سئل اللعن انتمى وانتسبا
نقطع في تكفيره ان صح ما	قد قال للغراب لما نعبا
واحربا يا آل حرب منكمو	يا آل حرب منكمو واحربا
لكم ومنكم وعليكم وبكم	ما لو شرحناه فضحنا الكتبا[(١)]

وعندما أهدى السلطان محمود الثاني قطعة من ستر قبر النبي الى مرقد الامام موسى بن جعفر في الكاظمية ، نظم العمري قصيدة لامية في مدح الامام لا تخلو من غلو[(٢)] • فأوعز علي رضا باشا الى السيد كاظم

(١) عبدالباقي العمري (الترياق الفاروقي) النجف ١٩٦٤ — ص٩١ — ٩٦ •

(٢) المصدر السابق — ص ١١٣ — ١١٤ •

الرشتي رئيس الشيخيين في كربلا بأن يشرح القصيدة ، فألّف هذا كتابا في ذلك حيث قال : « وقد أودعت في هذا الشرح من غرائب الأمور ، وعجائب الرسوم ، ما لا يجمعها كتاب ، ولا يحويها سؤال ولا جواب ، وانما هي من اشارة السنة والكتاب • وكتبته بأمر الوزير الأعظم ، والدستور المعظم ، جامع الرئاستين ، علي رضا باشا والي بغداد دار السلام ، صينت عن حوادث الأيام »[1] •

والملاحظ أن العمري اذ كان ينظم القصائد بهذه الروح الشيعية كان من الجانب الآخر يهاجم الشيعة ويسميهم بالاسم الذي ينبزهم به الخصوم وهو « الرافضة » • فعندما غزا علي رضا باشا المحمرة في عام ١٨٣٧م وهزم القبائل الشيعية الساكنة حولها نظم العمري قصيدة طويلة وردت فيها الأبيات التالية :

فتحنا بحمد الله حصن المحمرة	فأضحت بتسخير الآله مدمرة
بسيف علي ذي الفقار الذي لنا	لقد أخلصت صقلاً يد الله جوهره
سقى الرفض ساقي الحوض كأس منية	غداة وردنا بالمسرات كوثره
فواعجبا من شيعة كيف تدّعي	ولاء علي وهي عنه منفره
وأمست (بنو النصار) والرفض دينها	على ما دهاها من عليّ مفكره
وطار بسر (الباز) صيت عقابنا	لهم فغدت شيراز منهم مطيره[2]

نرى العمري في هذه الابيات ينبز الشيعة بالرفض ويعلن أن سرّ « الباز » أي الشيخ عبدالقادر الكيلاني قد طيّر شيراز • ان هذا يدل على ان الوالي علي رضا باشا كان بالرغم من عقيدته البكتاشية لا يميل الى الشيعة أو هو على الأقل لم يكن يتظاهر بالميل اليهم • والملاحظ بالاضافة الى ذلك أن أبا الثناء الآلوسي كان في عهده قد كتب عدة رسائل في الرد على الشيعة

(١) كاظم الرشتي (دليل المتحيرين) كربلا ١٣٦٤هـ ـ ص ١٣٤ •
(٢) عبدالباقي العمري (المصدر السابق) ص٢٣٤ ـ ٢٣٧ •

ونقض بعض عقائدهم لا سيما طعنهم في الصحابة •

نستطيع أن نستنتج من ذلك على أي حال أن علي رضا باشا كان يميل الى الشيعة من جهة وينحرف عنهم من الجهة الأخرى ، فهو لكونه بكتاشي العقيدة يشترك مع الشيعة في حب أهل البيت ، وهو لكونه والياً عثمانياً يختلف عنهم في حبه للصحابة أو في عدم طعنه فيهم على الأقل •

يرجح في ظني أن أكثر البكتاشيين كانوا مثل علي رضا باشا في هذا الاتجاه ، وقد قابلت بعضهم وناقشتهم فوجدتهم على شدة غلوهم في أهل البيت لا يطعنون في الصحابة ولا سيما في الخلفاء الثلاثة • فهم يعتبرون أنفسهم من أهل السنة والجماعة ويصفون الشيعة بأنهم « رافضة » ، وكان معيار الرفض عندهم هو سب الصحابة • والظاهر أن هذا المعيار هو الذي كان سائداً في البلاد العثمانية آنذاك ، فالذي لا يسب الصحابة يعد سنياً والذي يسبهم يعد رافضياً ، وكان هذا هو السبب الذي جعل في مقدور البكتاشيين أن يتولوا المناصب العالية والوزارات في الدولة العثمانية كعلي رضا باشا والكثيرين من أمثاله •

ان مبدأ « التولّي » و « التبرّي » موجود عند البكتاشيين كما هو موجود عند الشيعة ، ولكن البكتاشيين يُخرجون الصحابة والخلفاء الثلاثة من نطاق « التبري » و يشملون به بني أمية • ولهذا كان عبدالباقي العمري يكثر من ذم بني أمية في قصائده ، وكذلك فعل أبو الثناء الآلوسي في تفسيره حيث جعل الأسرة الأموية هي الشجرة الملعونة في القرآن •

الطقوس الشيعية :

ان الطقوس الشيعية المعروفة من حيث اقامة مجالس التعزية واخراج المواكب الحسينية وما أشبه كان قد أسسها الصفويون في ايران منذ القرن السادس عشر وانتشرت هناك دون أن تأتي الى العراق ، فقد كان الولاة العثمانيون يمنعونها من الدخول الى العراق واستمروا على ذلك اكثر من

قرنين حتى جاء علي رضا باشا فكان هذا أول الولاة الذين سمحوا بها •

كان الولاة قبل علي رضا باشا يعتبرون تلك الطقوس من جملة أساليب الدعاية التي كانت حكومة ايران تحاول بها التغلغل في العراق ، ولهـذا كانوا يتشددون في منعها عندما تكون هناك حرب بين الحكومتين • والمعروف عن داود باشا أنه كان اكثر من غيره تضييقاً عليها حتى قيل ان شيعة بغـداد في زمانه كانوا يقيمون مجالس التعزية في السراديب ويجعلون امرأة تدير الرحى في صحن الدار لكي لايسمع المارة في الشارع صوت من في المجلس•

ان أول رجل استطاع أن يقيم مجلس تعزية في العراق كان من أهل النجف اسمه الشيخ نصار بن سعد العبسي[1] ، والظاهر أنه اغتنم فرصة الصلح الذي عقد في عام ١٨٢١م بين داود باشـا وحكومة ايران والذي توسـط فيه الشيخ موسى كاشـف الغطاء ، فأخذ يقيم مجلس التعزية في داره ، واقتدى به بعض سراة النجف تدريجاً • أما في بغداد فقد ظل أمر المنع سارياً طيلة عهد داود باشا •

وفي عام ١٨٣١م عندما سمع شيعة بغداد بقدوم علي رضا باشا على رأس جيش كبير لمحاربة داود باشا شد الرحال اليه سـبعة من وجهائهم ، فالتقوا به في الموصل وشكوا اليه حالهم وكيف أنهم يقيمون مجالس التعزية في السراديب ، فطيّب علي رضا باشا خاطرهم ووعدهم بأنه عندما يفتح بغداد سـيجعلهم يقيمون مجالس التعزيـة فوق السـطوح بدلاً من تحت الأرض ، وانه هو نفسه سيحضر تلك المجالس •

وقد أنجز علي رضا باشا وعده بعد فتحه بغداد ، فلما حل شهر محرم في السنة التالية ، وكان ذلك في ٢١ أيار من عام ١٨٣٢م ، أقامت احدى الاسر الشيعية مجلساً للتعزية في دارها ، وقد حضره الوالي فعلاً[2] فكان

---

(١) علي الخاقاني (شعراء الغري) النجف ١٩٥٤ ـ ج١٢ ص٣٢٤ •

(٢) حدثني بذلك المؤرخ عبدالرزاق الحسني •

ذلك تشجيعاً لغيرها للاقتداء بها • ومنذ ذلك الحين أخذت مجالس التعزية تنمو وتنتشر في كل مكان ، وكان من أسباب انتشارها أنها أصبحت رمزاً للوجاهة في المجتمع فصار كل رجل يملك شيئاً من الثروة ميالاً أن يقيم مجلساً في داره لكي يرفع به منزلته الاجتماعية •

وفي الوقت الذي أخذت فيه مجالس التعزية بالانتشار ظهرت مواكب اللطم ، وكان أول موكب منها أخرجه الشيخ باقر بن الشيخ اسد الله في الكاظمية ، ثم انتشرت المواكب من بعد ذلك في أنحاء العراق • وقد أصبحت هذه المواكب كمجالس التعزية رمزاً للوجاهة مما ساعد على انتشارها ، فالرجل الذي يترأس موكباً أو يمشي أمامه أو ينوح فيه يشعر بشيء من الشموخ والأبهة من جراء ما يحيط به من جماهير تنظر اليه ، وتزداد الأبهة لديه أضعافاً عندما تكون النساء في صفوف المتفرجين فان صراخهن يجعل الرجل المشارك في الموكب يشعر كأنه فاتح يقود جيشاً عظيماً • ولولا ذلك لماتت المواكب منذ زمان بعيد !

جرى الولاة من بعد علي رضا باشا على سنته ، فكانوا يتساهلون في أمر انتشار الطقوس الشيعية ، ما عدا مدحت باشا فهو قد حاول منعها ولكنه لم يوفق ، ويقال انه سأل اسطنبول في أمرها فكان الجواب : « دعهم يفعلون ما يشاؤون ما داموا لا يؤذون سوى أنفسهم » •

يبدو أن السبب الذي جعل الحكومة العثمانية تتساهل تجاه تلك الطقوس بعدما كانت تتشدد في منعها هو أنها صارت تخشى من الدعاية التي كان محمد علي باشا يبثها في أوساط الشيعة آنذاك ، فقد كانت الرسائل تأتي منه تباعاً فتصل الى بغداد والبصرة وكربلا والنجف وبعض العشائر العراقية • ومعنى هذا أن الحكومة العثمانية لم تعد تحذر من الدعاية الايرانية بمقدار ما تحذر من الدعاية المصرية • وعندما زال الخطر المصري فيما بعد كان الخطر الايراني قد تضاءل وكاد يزول وذلك بعدما استتب الصلح بين الدولة العثمانية والايرانية وتعينت الحدود بينهما بشكل دائم كما سنأتي اليه في الفصل القادم •